الشعر: من(المدنّس) إلى اكتشاف (المقدّس) (الباقلانيُ) و(عبد القاهر الجرجانيُ) أنموذجا.

أ.د فاضل عبود التميمي
كليّة التربية للعلوم الإنسانيّة
جامعة دَيالى (العراق)

ملخّص الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى الوقوف عند ناقدين عربيّين قديمين أعني:الباقلاني (403هـ)،وعبد القاهر الجرجاني(471هـ) لغرض فهم موقفيهما النقدي الخاص بالعلاقة الرابطة بين لغة القرآن الكريم، واللغة العربيّة معتمدة رؤية منهجيّة وصفيّة تميل إلى التحليل، وقد انفتحت على عدد من المصادر،والمراجع التي حامت حول كتابيهما: (إعجاز القرآن)،و(دلائل الإعجاز)،والهدف من الدراسة الوقوف على (أسرار) اختلافهما النقديّ الذي أفضى إلى وجود بون شاسع في خطاب كلّ واحد منهما إزاء العلاقة الجامعة بين لغة القرآن الكريم، والعربيّة المتّصلة بإبداع الشعر، فالباقلاني خلص إلى رأى مؤدّاه أنّ في نظم لغة القرآن الكريم غير ما هو كائن في نظم العربيّة، أي أنّ لغة القرآن وإنْ كانت من لغة العرب إلا أنّها ليست من جنسها، أو نظمها المعتاد، وأنّ (بلاغة) القرآن يمكن أن يدرك بها إعجازه ،بخلاف (بلاغة) الشعر ،والنثر التي هي من نظم بشريّ متفاوت السبك ،والجمال.

كان الباقلاني يرى أنّ الشعر مهما بلغ في علو مقامه فإنّه في المرتبة الأدنى من القبول، لا لأنّه خطاب قوليّ حسب؛ بل لأنّه -والقول له-ضَرَبَ الشيطانُ فيه بسهمه، وأخذ منه بحظّه، فهو مدنّس لا يمكن أن تتقارب لغته مع لغة القرآن الكريم.

وكان عبد القاهر قد رأى أنّ الباحث في إعجاز القرآن لا يَعْرِف حقيقة الإعجاز إلا بعد أن يعرف حقيقة الشعر الذي هو ديوان العرب، وعنوان الأدب، الذي لا يُشكّ في أنّه كان ميدان القوم إذا تجارَوْا في الفصاحة والبيان، وتنازعوا فيهما قَصَبَ الرِّهان، وكان الصَّادُّ عن دراسة الشعر صاداً عن أن تُعْرَف حجة الله تعالى في كتابه ، فالجرجانيّ في وصفه السابق ألزم الباحث في الإعجاز بمعرفة الشعر، ونقده ،ومعرفة الفصاحة والبلاغة، فضلا عن معرفة علل تفضيل شاعر على آخر ،وكأنّي به يريد أن يقول: إنّ ادراك الاعجاز لا يمكن أن يكون إلا من خلال ثقافة نقديّة تمكّن الباحث من الموازنة بين أسلوب القرآن ،وأساليب الشعر ليعرف الجهات التي يتفرّد بها القرآن، أو يتفوّق فيها ،ويعرف علل التفرّد ،والتفوق وهذا يعني أنّ عبد القاهر وظّف النقد لمعرفة الإعجاز ،وصار واضحا عنده أنّ العلم بالنحو، وتوخّي معانيه، ونقد الشعر من أهمّ أدوات البحث في الاعجاز .

لقد وقفت(الدراسة) على (سرّ) فهم الناقدين فتبيّن لها أنّ وراء تجاهل (الباقلاني) المقاربة بين القرآن، والشعر اعتقاده (الأشعري) الذي يرى أنّ بلاغة القرآن ليست من جنس

بلاغة البشر، وأنّ الشعر يحتوي على الغثّ، والركيك والسفساف، وقد تبرّأ منه القرآن ،وأنّ (سرّ) مقاربة الجرجاني بين القرآن، والشعر تُرَدّ إلى أنّه على الرغم من (أشعريّته) إلا أنّه لم يفكّر من داخل المذهب الاشعري ،وهو يكتب :(دلائل الإعجاز)، وإنّما كان يفكّر بمنظومة المذهب المعتزلي التي أخذها عن القاضي عبد الجبار الأسد آبادي وغيره، فهو ليس (اشعريّ) الفكر في (الدلائل)، بل معتزليّ الاتجاه يؤمن كما تؤمن المعتزلة بأن الأسس البلاغيّة في القرآن الكريم هي نفسها الأسس البلاغيّة لكلام سائر البشر، وأن معايير الجمال في النص القرآني هي نفسها معايير الجمال في أي نص أدبي.

المدخل:

يشكّل الشعر مكانة مهمّة في تاريخ العرب استمدّت وجودها من طبيعة الحياة التي كان العربيّ يعيشها، وهو متوحّد مع بيئة قبلت أن يكون الشعر(علامتها) المتميّزة في الجاهليّة، و(ديوانها)[1]،في العصور الإسلاميّة ،وهذا يعني أنّ الشعر بوصفه خطابا رافق الحياة العربيّة ليمثّل خير تمثيل آمال الإنسان، وآلامه في رحلة بدأت على ما يقول الجاحظ (255هـ) قبل مئة وخمسين سنة إلى مئتين من ظهور الاسلام[2]،ولمّا تنته بعد.

وبنزول القرآن الكريم، وتمكّنه من العقل العربي واجهت (العرب) يوم ذاك مسألة جديدة تمثّلت في تحديد طبيعة العلاقة الرابطة بين لغة القرآن الكريم، ولغة العرب، فكان أن اقترحوا إجابات تفضي إلى تحديد القاسم المشترك بينهما، أو تحديد طبيعة النظام الذي يتحكّم في صياغة كلّ منهما لكي يتمكّنوا من الوقوف عند الفلسفة الجمالية التي تقف عند بنائهما.

كان الشافعي (204هـ) من أوائل المتنبهين على أنّ ثمّة قاسما مشتركا يربط بين العربيّة ولغة القرآن الكريم حين قال:((خاطب الله بكتابه العربَ بلسانها، على ما تعرف من معانيها وكان ممّا تعرف من معانيها: اتساعُ لسانها))[3]، فهو في مقولته قارب بين اللغتين لفظا ومعنى ، في إشارة دالّة على أنّ العربيّة لغة القرآن الكريم تفصيلا ودلالات.

ويبدو أنّ أبا عبيدة (210هـ) كان قد وقف عند المسألة نفسها حين قال :((في القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب ،ومن الغريب ،والمعاني))[4]، وكلامه لا يترك شكّا في أنّه ساوى بين لغة القرآن الكريم ،والكلام العربي بما فيه من شعر، ونثر لا سيّما في خصائص ظاهرة الإعراب التي تعدّ سمة أصيلة في العربيّة لها أثر في تشكيل الدلالة ،فضلا عن وجود الغريب أي الغامض من الكلام ،والمعاني التي هي نتاج النظم والتعبير.

وكان ابن قتيبة (276هـ) في كتابه (تأويل مشكل القرآن) قد رأى أنّ ((للعرب (المجازات) في الكلام ،ومعناها :طرق القول ومآخذه ،ففيها: الاستعارة ،والتمثيل ،والقلب ،والتقديم والتأخير ،والحذف ،والتكرار، والإخفاء ،والإظهار ،والتعريض ،والإفصاح ،والكناية ،والإيضاح ،ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ،والجميع خطاب الواحد ،والواحد والجميع خطاب الاثنين ،والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم ،وبلفظ العموم لمعنى الخصوص[...]،

وبكلّ(هذه المذاهب) نزل القرآن))[5]،وهو يشير إلى أنّ طرائق القول العربيّة هي نفسها طرائق التعبير في النصّ القرآني الكريم.

ورأى أبو هلال العسكري(395هـ) أنّ:((جميع ما في القرآن مما يجرى على التسجيع، والازدواج مخالف في تمكين المعنى، وصفاء اللفظ، وتضمّن الطلاوة، والماء لما يجري مجراه من كلام الخلق))[6]،أي أنّ القرآن الكريم مخالف للكلام البشري في وجوه كثيرة ميّزت خطابه.

وكان القرآن الكريم قد حسم المسألة من وجهة نظر ربانيّة حين نصّ :((وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه))[7]، ولم يكن القرآن الكريم بدعا من الكتب السماويّة الأخرى حين جعله الله سبحانه وتعالى متلوّا ومكتوبا بالعربيّة التي كانت وستبقى لغة مشهودا بأدبيّتها الراقية ، وهي لغة قوم نزل بها كتاب الله المقدّس.

ويبدو لي أنّ فهم العلاقة بين لغة القرآن، ولغة العرب ظلّت على ما أثبته أبو عبيدة، وابن قتيبة في القرن الرابع الهجري أيضا، إذ لم يؤثر عن ناقد، أو دارس ،أو فقيه أن قال بما يخالف المقولتين السابقتين سوى مقولة العسكري، حتى طلّ القرن الخامس الهجري فحمل رأيين جديرين بالقراءة، والتأمّل قال بهما ناقدان مهمّان:

الأوّل: أبو بكر الباقلّاني:

كان الباقلاني في كتابه: (اعجاز القرآن) قد مثّل منهجيّة مهمّة في تاريخ التأليف عند العرب حضرت فيها فكرتان رئيستان: الأولى: البحث في الإعجاز، والأخرى حضور النقد البلاغي، فضلا عن اعتماد المؤلف على منهج نقدي ذي رؤية وصفيّة تحليليّة استعانت بالنص القرآني، والخطاب الأدبي عند العرب، والكثير من المدونات البلاغيّة والنقديّة، وهي تُريد بناء كتاب حافل برؤى الإعجاز، والنقد معاً.

لقد أفاض الباقلاني البحث في (الإعجاز البلاغي) بوصفه وجهاً مهمّاً من وجوه البلاغة العربيّة التي دافعت عن حقيقة القرآن، وصحّة العقيدة محدّدا إياها في عشر مسائل[8]، وكان قد قال في (المسألة) التي مرّ عليها أبو عبيدة ،وابن قتيبة ،ولكن على وفق رؤية مغايرة سنفصّل القول فيها في الآتي من الكلام:

بدءا لا بد من التأكيد أنّ الباقلاني كان قد رأى أنّ في لغة القرآن وجوها بلاغيّة ممّا هي موجودة في لغة العرب فالقرآن الكريم:((لا ينفك... عن فن من فنون بلاغتهم[العرب] ،ولا وجه من وجوه فصاحتهم))[9]،وهذه إشارة أولى تحيل على اقراره باشتمال القرآن الكريم على فنون البلاغة العربيّة المعروفة ، لكنّ المتابع لأفكار الباقلاني سيجده قد قسّم البلاغة على قسمين: (إلهيّة)، وأخرى(بشريّة)، والقسمة تحيل ضمنا عنده بالنتيجة على موازنة بين كلام (رباني) معجز، و(إنساني) متفاوت الجمال، بمعنى أنّ تلك القسمة عكست طبيعة النظرية التي تسلح بها الباقلاني، وهو يدرس قضيّة الإعجاز التي كان قد وازن فيها بين القرآن الكريم والشعر، أي -والكلام له - بين ((الكلام الصادر عن الربوبيّة، الطالع عن الإلهية...و...شيء من الشعر المجمع عليه ،[ليبيّن] وجه النقص فيه ،و[يدل] على انحطاط

رتبته، ووقوع أبواب الخلل فيه))[10]: أي بين ما هو(مقدّس) القرآن ، والشعر الذي هو بحسب رأيه (مدنّس): ((ضرب الشيطان فيه بسهمه، وأخذ منه بحظه))[11]، لكي يثبت تفوق (المقدس) على (المدنس)، وليس هذا بالأمر الصعب على المسلم الذي يؤمن بالفطرة بتفوق القرآن على كل الخطابات .

لقد كان من الصعب على الباقلاني أن ينظر بمعيار واحد إلى البلاغتين، وهو يؤمن أنّ لغة القرآن الكريم بألفاظها، وتراكيبها من لغة العرب، ولكن طريقة نظمها كما رأى تشكّل جنساً خاصّاً ليس من جنس كلام العرب أي أنّ (جنسيّة) لغة القرآن من غير جنسية لغة العرب، ودليله أنّ:((نظم القرآن جنس متميّز، وأسلوب متخصص، وقبيل عن النظير متخلص))[12]، فجنسيّة اللغة القرآنية لها خصوصيّة استطاع الباقلاني أن يحدّد أبرز سماتها في كتابه (نكت الانتصار لنقل القرآن) فالقرآن، ولغته:((ليس من نجار شيء من كلامهم، إنّه لو كان من نجاره لم يعجزوا إن يقولوا له: وما في هذا مما يُتحدى به؟،وهو نطقنا ونطق أسلافنا))[13]،أي- والكلام للباقلاني- أنّ نظم القرآن ((يخرج عن إمكان الناطقين لا على معنى أنّه تجويد كلام هو على معنى كلام العرب))[14]، بمعنى آخر والكلام -أيضاً- لمّا يزل للباقلاني: ((إنّ القرآن ليس من وزن كلامهم ولا من نجاره، مع أنهم تُحدوا بذلك ويدل على أنّه ليس هو جميع أوزان كلام العرب، أنه لو كان كذلك لم يدهش فيه))[15]، وهذا يعني عنده:((إن الله تعالى قدر على أن يأتي من كلام العرب بما لا يقدر واحد من العرب على الإتيان بمثله))[16].

ممّا سبق يتبيّن أنّ الباقلاني رأى في نظم لغة القرآن غير ما هو كائن في نظم العربيّة مع أنه كان قد أقرّ مسبقا لا ينفك القرآن عن فن من فنون بلاغة العرب، ولا وجه من وجوه فصاحتهم، أي أنّ القرآن الكريم وإن كان من لغة العرب إلا إنه ليس من جنسها، أو نظمها المعتاد، وأن (بديعه) لا يمكن أن ندرك به إعجاز القرآن ،بخلاف (البديع) الآخر الذي هو من نظم بشري متفاوت السبك ،والجمال سواء أكان في الشعر أم في النثر.

ترى ما (سرّ) مغايرة الباقلاني لسابقيه ؟، وهل كان ينطلق من حاضنة فكريّة معروفة؟،لا شكّ في أنّ (السرّ) يرتبط بمجمل أفكاره التي استقاها من الفكر (الأشعري) الذي جاهر القول به[17]،والأشعريّة على اعتقاد فكريّ يفصل بين بلاغة القرآن الكريم ،وبلاغة الأدب سبق للخطابي (388هـ) أن وضّحه حين قال: إنّ ((البلاغة التي اختصّ بها القرآن الفائقة في وصفها سائر البلاغات))[18] ،هي البلاغة التي لا تشبهها بلاغة إنسان، ومعناها يتميّز من سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة[19]، أي البلاغة المعروفة ،وهذا يعني، والكلام للخطابي أيضا:((أنّ الذي يوجد لهذا الكلام من العذوبة في حس السامع ،والهشاشة في نفسه ،وما يتحلى به من الرونق والبهجة التي يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع في القلوب، والتأثير في النفوس ،فتصلح من أجله الألسن على أنّه كلام لا يشبه كلام))[20]،أي لا يشبه كلام البشر.

ممّا سبق يتبيّن أنّ(الخطّابي) كان قد سلك المسار الفكري الذي اختطّته (الأشاعرة) لنفسها، وهي تفصل بين بلاغة القرآن الكريم، والبلاغة العربيّة المبثوثة في شعر العرب، ونثرها، فبلاغة القرآن عند الاشاعرة (فائقة) في بنيتها ودلالتها؛ لأنّها من لدن واحد أحد لا يدانيه أحد، وهذا سرّ تفرّدها واختلافها عن بلاغة البشر.

لاشكّ في أنّ الباقلاني كان (أشعريّا) ، ولأنه (أشعريّ) كان يرى أن بلاغة القرآن ليست من جنس بلاغة البشر، فكان له أن عدّ القرآن الكريم معجزا بكامله، أي بحروفه، وتراكيبه، وهو عند(الأشعريّة) صفة من صفات الله، وليس فعلا من أفعاله تعالى، صحيح أنّ الباقلاني رأى أنّ مدرك الإعجاز يجب أن يكون:((متناهياً في معرفة وجوه الخطاب وطرق البلاغة، والفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة))[21]،لكنّه لم ير في الشعر إلا خطابا مفكّكا و:((أن هذه الروائع على قيمتها تحتوي على الغث والركيك والسفساف، الشيء الذي تبرأ منه القرآن))[22]، وعند الباقلاني ((هيهات أن يكون المطموع فيه كالمأيوس منه ،وأن يكون الليل كالنهار، والباطل كالحقّ، وكلام ربّ العالمين ككلام البشر))[23].

لقد رفض الباقلانيّ وجود أي صلة بين القرآن والشعر تنزيها له، وهو القائل :((قد علمنا أنّ الله تعالى نفى الشعر عن القرآن))[24]، وهو يرى أن لا يكون الكلام شعرا إلا إذا قصد المبدع اليه لا إلى غيره فـ((إنّ الشعر إنّما يطلق، متى قصد القاصد اليه على الطريق الذي يتعمد ويسلك، ولا يصح أن يتفق مثله إلا من الشعراء، دون ما يستوي فيه العاميُّ والجاهل، والعالم بالشعر، واللسان، وتصرفه ،وما يتفق من كل واحد))[25]،ويضيف:((فلا يصح أن يقع-الشعر-إلا من قاصد اليه))[26]،أي الى الشعر، فالقصد إحالة، وإشارة إلى جنس الشعر، ومن دونها ((يفارق أمر الشعر؛ لأنّه لا يجوز أن يقع في الخطاب إلا مقصودا إليه، وإذا وقع غير مقصود إليه كان دون القدر الذي نسميه شعرا))[27]،أي أنّ ((**صورة الشعر قد تتّفق في القرآن، وإنْ لم يكن له حُكم الشعر))[28] ،ولو قال قائل والكلام للباقلاني ((في القرآن كلام موزون كوزن الشعر، وإن كان غير مقفّى))[29]، كان جوابه :((ليس في القرآن من الموزون الذي وصفناه...أنّ القرآن خارج عن الوزن الذي بيّنا))[30]، ويدل رأي الباقلاني بمعلّقة امرئ القيس على مقدار استهجانه للشعر وإن كان صادرا عن فحل من فحول العربيّة فمعلّقته بحسب رأيه ((ترددت بين أبيات سوقيّة مبتذلة ،وأبيات متوسطة ،وأبيات ضعيفة مرذولة ،وأبيات وحشيّة غامضة مستكرهة ،وأبيات معدودة بديعة))[31]،وله رأي بشعر ابن الرومي في قصيدته الشهيرة) :(أهلا بذلكم الخيال المقبل) لا يقل استهجانا عن معلقة امرئ القيس[32].**

لقد صار واضحا أنّ الباقلاني في خطابه السابق عني بـ:((مسائل المدرسة الأشعريّة، وصاغ آراءها في وضوح ودقة))[33]،وهذا (السرّ) كان وراء فهمه النقدي الذي واجه به رفض الشعر، وهو ما جعل بعض النقّاد المعاصرين يؤاخذونه على موقفه: فزكي مبارك (1952م) تحدث عن تحامل الباقلاني على امرئ القيس، فهو لم ينقد معلقته إلا ليكشف عن تفاوت أبياتها قياسا بما في القرآن الكريم[34]، ود. محمد مندور(1965م) وصف نقده للشعر لغرض

الاستدلال على إعجاز القرآن بأنه ((لا غناء فيه، ولا استقامة لمقاييسه [...] فيظهر بذلك أنّ القرآن أبلغ وأفصح، وأبدع منه، وتلك هي الخطة العامة للباقلاني الذي لا يدل على اعجاز القرآن في ذاته قدر تدليله على ذلك بتسخيف ما عداه من قول))[35]،أمّا الشيخ محمود محمد شاكر(1997م) فقد مدح صنيعه في الكشف عن اعجاز القرآن، ولكنه رآه قد ((زل زلة كان لها بعد ذلك آثار متلاحقة))[36]،ويعني بالزلّة تحامله على امرئ القيس.

وخلاصة القول الذي يمكن الاستئناس به أنّ الباقلاني كان يريد أن يجعل الشعر -مهما بلغت سمة علوّه-في المرتبة الأدنى من القبول الأدبي لا لأنّه خطاب قوليّ حسب، بل لأنّه خطاب والقول له:((ضرب الشيطان فيه بسهمه، وأخذ منه بحظه))[37]،فهو مدنّس لا يمكن أن تتقارب لغته مع لغة القرآن الكريم ،وقد توصّل إلى هذا التوصيف بسبب تأثير الفكر الأشعري في أهمّ مقولاته النقديّة ،وهذا يعني أنّ سرّ الفهم النقدي للباقلاني كان يرتبط بدرجة اندماجه بأفكار الأشاعرة ، ومحدداتهم النقديّة الخاصّة باللغة والأدب.

الأخر: عبد القاهر الجرجاني:

من المعلوم أنّ كتاب:(دلائل الاعجاز) يتناول علم (المعاني)، فضلًا عن موضوعات أخرى في علم (البيان)، ولكنّ الكتاب في خلاصته النهائيّة ينظر إلى هذين العلمين من خلال نظريّة النظم، وإجراءاتها، وهو يسيح بين آيات منتقاة من القرآن الكريم، وشواهد من الأدب العربي بجنسيه المعروفين: الشعر والنثر، في عصوره المختلفة، فكأنّ الكتاب في منتهاه خلاصة ذكيّة لأدبيّة الإعجاز القرآني، وطرائق تشكيلها.

شكّل الشعر مادّة مهمّة في البحث البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني في كتابة المذكور آنفا، فقد اتخذ من معرفته سبيلا واضحا للوصول إلى فهم القرآن الكريم، وكان خير من دافع عن الشعر، وعن مكانته في فهم الإعجاز، وكانت له وقفة مع من ساء اعتقاده في طبيعة الشعر، وأثره في بناء اللغة ((الذي هو معدنها، وعليه المعوّل فيها ،وفي علم الإعراب الذي هو لها كالنّاسب ينمّيها إلى أصولها، ويبيّن فاضلها من مفضولها))[38]،

وقد جهّلَ الجرجاني بالكلام القاطع من ذمَّ الشعر الذي أسرف في القدح به ، فهو على ما رأى ذلك الذامّ: ((ليس فيه كثير طائل، وأنْ ليس إلا مُلْحَةً، أو فكاهة، أو بكاءَ منزل، أو وصفَ طلل، ناقة، أو جَمَل، أو إسراف قول في مدح، أو هجاء، وأنه ليس بشيء تَمَسَّ الحاجة إليه في صلاح دين، أو دنيا))[39]،والجرجاني في نقله رأي من ذمّ الشعر أراد التأكيد على أهميّته، والانتقال به من كونه مجرد تعبير جمالي إلى أداء رسالة اصلاحيّة في الحياة ،وهذه أوّل عبارة في تاريخ الأدب – في ما أعلم- تنبّه على أنْ تكون للأدب رسالة، وأنّ الفن ليس لمجرد الفن ،ولكنه للحياة أيضا [40]، فالإصلاح الذي ورد في مقوله الجرجاني لا يمكن فصله عن الوظيفة الاجتماعيّة للأدب، تلك التي ينادي بها اليوم منهجٌ نقديٌّ معروفٌ ،ومؤسّسات ثقافيّة واعلاميّة تجعل الأدب في خدمة المجتمع ومن أجله.

وقال الجرجاني وهو في مقام الانتصار للشعر:((وكان مُحالا أن يَعْرِفَ كونَه [القرآن] كذلك، إلا من عَرَفَ الشعر الذي هو ديوان العرب، وعنوان الأدب، والذي لا يشك أنه كان ميدان القوم إذا تجارَوْا في الفصاحة والبيان، وتنازعوا فيهما قَصَبَ الرِّهان، ثم بحث عن العلل التي بها كان التباين في الفضل، وزاد بعض الشعر على بعض، كان الصَّادُّ عن ذلك صاداً عن أن تُعْرَف حجة الله تعالى))[41]، فالجرجانيّ في وصفه السابق ألزم الباحث في الإعجاز بمعرفة الشعر ونقده ،والفصاحة والبلاغة فضلا عن معرفة علل تفضيل شاعر على آخر ،وكأنّي به يريد أن يقول :إنّ ادراك الإعجاز لا يمكن أن يكون إلا من خلال ثقافة نقديّة تمكّن الباحث من الموازنة بين أسلوب القرآن ،وأساليب الشعر ليعرف الجهات التي يتفرّد بها القرآن، أو يتفوّق فيها ،وعلل التفرّد ،والتفوق وهذا يعني أنّ عبد القاهر وظّف النقد لمعرفة الإعجاز، وصار واضحا عنده أنّ العلم بالنحو، ومعرفة معانيه ،ونقد الشعر من أهمّ أدوات البحث في الاعجاز[42].

وكان الجرجاني قد دافع عن الشعر، وأهدافه، ومراميه، فقد وجد عن قرب أنّ ((مَنْ زَعَمَ أن ذمَّه له [الشعر] من أجل ما يجد فيه من هَزْل، وسُخْف، وكَذِب، وباطل، فينبغي أن يَذُمَّ الكلام كله، وان يفضل الخَرَسَ على النطق، والعِيَّ على البيان))[43]،وحجّة الجرجاني أنّ الذمّ -هنا- يفارق الحقيقة ؛إذ إنّ النثر فيه من الهزل ،والسخف أضعاف ما في الشعر ،وهو ما ينبغي الذمّ أولا ،فذمّهم مبنيّ على سوء القصد الذي يريد الحطّ من الشعر ؛لأنّه شعر حسب.

فالشعر عند الجرجاني:((قيَّدَ على الناس المعاني الشريفة، وأفادهم الفوائد الجليلة، وترسّل بين الماضي والغابر، ينقل مكارم الأخلاق إلى الولد عن الوالد، ويؤدّي ودائع الشرف عن الغائب إلى الشاهد، حتى ترى به آثار الماضين مخلّدة في الباقين، وعقول الأوّلين مردودة في الآخرين، وترى لكل من رام الأدب، وابتغى الشرف، وطلب محاسن القول والفعل، مناراً مرفوعاً، وعلماً منصوباً، وهادياً مرشداً، ومُعَلّماً مُسَدِّداً))[44]، وهنا أدرك الجرجاني أكثر من وظيفة للشعر تناولها بالحصر ,والتحديد, وكان رائده أن الشعر نتاج إنساني متميّز لا يمكن إقصاؤه ولا إنكار مزاياه.

ومن المنهجيّة الحكيمة التي اتّبعها عبد القاهر أنه كان يعرف بالشعر مكان البلاغة، ويجعله مثالا في البراعة، ويحتجّ به في تفسير كتاب الله تعالى وسنّته، وهو ينظر في نظمه، ونظم القرآن الكريم فيرى موضع الإعجاز، ويقف على الجهة التي منها كان، ويتبيَّنَ به الفصل والفرقان[45]، فالجرجانيّ في لمحاته السابقة لم يترك شكّا لمن تريد أن تسوّل له نفسه الطعن بالشعر، فالباحث في الإعجاز لا يجد ضيرا من أنْ يدقّق في نظم الشعر، ثمّ يدقّق النظر في نظم القرآن ؛ لكي يتمكّن من فهم النظم القرآني ،والإحساس بإعجازه الخاص.

وجاهرالجرجانيّ بضرورة استشهاد العلماء بشعر امرئ القيس، وأشعار الجاهلية لما فيها من أثر ((في تفسير القرآن، وفي غريبه وغريب الحديث))[46]،وقد جاء كلامه السابق في سياق الاحتجاج على من ذم الشعر ،والشعراء.

وكان عبد القاهر قد قارب حقيقة الأدب القائمة على بنية التخيّل والإغراق، والمبالغة، واقتفاء اثر اللغة المجازيّة، وذهب إلى أن صنعة الشعر((إنما تَمُدُّ باعها، وتنشر شُعاعها، ويتسع ميدانها، وتتفرّع أفنانها، حيث يعتمد الاتساع، والتخييل، ويُدَّعى الحقيقة فيما أصله التقريب، والتمثيل، وحيث يقصد التلطُّف، والتأويل، ويُذهب بالقول مذهب المبالغة، والإغراق في المدح، والذم، والوصف، والنعت، والفخر، والمباهاة، وسائر المقاصد، والأغراض، وهنا يجد الشاعر سبيلا إلى أن يبدع، ويزيد، ويُبدى في اختراع الصور، ويعيد))[47]،وفي قوله هذا أخرج الشعر من دلالة (الكذب) المنطقية ليؤكد حقيقته القائمة على التخييل والتأويل والاختراع, وليرسخ في الأذهان بُعْدَ الشعر عن الصدق بوصفه معنى شائعاً, فحكم الشعر عنده((فيما يصنعه من الصوَر، ويُشكّله من البِدَع، ويوقعه في النفوس من المعاني التي يُتوهَّم بها الجمادُ الصامتُ في صورة الحيّ الناطق، والمواتُ الأخرسُ في قضبة الفصيح المُعرب، والمُبيّن المميِّز، والمعدومُ المفقودُ في حكم الموجود المشاهَد))[48]، وهذا كاف لأن يخرج الشعر من أي دلالة تمتُّ إلى الحقول المنطقية، ليدخله عامدا في صلب اللغة المغايرة.

إن صوغ الشعر عند عبد القاهر يقوم على جملة من المقومات التي بها يتمكن الشاعر من أن يصنع ((من المادة الخسيسة بِدَعا تغلو في القيمة، وتعلو، ويفعل من قلب الجواهر وتبديل الطبائع ما ترى به الكيمياء وقد صَحَّت، ودعوى الإكسير وقد وَضَحَتْ، إلا أنها روحانية تتلبّس بالأوهام، والإفهام، دون الأجسام، والأجرام))[49], بمعنى أنها وظيفة مغايرة لطبيعة الأشياء، ومفارقة لمنطق التحديد، والإلزام.

هذا بإيجاز دقيق تحديد لرأي عبد القاهر الجرجاني في(الشعر)، وفيه أماط اللثام عن:

1- وظيفة الشعر الأدبيّة، والجماليّة والتعليميّة.

2- جهّل من ذمّ وظيفة الشعر الدينيّة، والدنيويّة.

3- منهجيّته السابرة لأعماق الشعر التي عرف من خلالها مكان البلاغة للاحتجاج لتفسير القرآن وصولا إلى الكشف عن إعجازه.

4- أن الشعر ليس من المنطق لذا لا يجوز نعته بالكذب لأنه معنى متوهم في النفس.

ممّا تقدّم يتّضح أنّ موقف الجرجاني من الشعر يشتمل على(نظرة) أخذت بالحسبان أهميّته بوصفه خطابا إبداعيا يسهم في فهم الظواهر الحياتية ويفسرها، ويعلن موقفها منها؛ ولهذا استشهد به في كتابيه الجليلين : أسرار البلاغة ،و دلائل الاعجاز إيمانا منه بأن الشعر رافد ابداعي إنسانيٌ متميّز في مجرى الحياة ، فهو معجز في نظمه قياسا بما يقال من كلام أدبيّ آدمي، وكان الجاحظ (255هـ) ممّن استهوته فكرة قداسة الشعر عند العرب في مستواها الوزني حين أشار إلى أنّ الشعر الذي هو حكمة العرب لا يترجم ((ولو حوّلت حكمة

العرب [الشعر] لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن))[50]، ناعتا وزن الشعر بالمعجز البشري الذي لا يقوى على إبداعه سوى الشعراء.

إنّ السؤال الذي يفرض وجوده الآن: لماذا تميّز موقف الجرجاني من موقف الباقلاني مع أنّ الاثنين شُغلا بقضيّة (اعجاز القرآن)، وكانا قد انحدرا من مدرسة فكريّة واحدة: (الأشعريّة)[51]، وكان الشعر وسيلتهما لإثبات صحة الأفكار التي آمنا بها ؟.

لقد كشف الشيخ محمود محمد شاكر أثر الفكر الإعتزالي في كتاب (دلائل الإعجاز) حين رأى أنّ أقوالا كثيرة فيه لم يصرّح الجرجانيّ بنسبتها إلى أحد هي في الحق أقوال القاضي عبد الجبار الأسدآبادي(415هـ) صاحب كتاب:(المغني في أبواب التوحيد والعدل) المتكلّم المعتزلي[52]، أي أنّ ثمّة علاقة تأثير وإعجاب بين الاثنين.

واستطاعت الباحثة (سلوى النجّار) أن تؤكّد ما بذره الشيخ محمود محمد شاكر حين انطلقت من افتراض دعمته بأفكارها لتستدلّ عليه مؤدّاه أنّ الجرجانيّ ((لم يفكّر من داخل المذهب الاشعري ، وإنّما كان يفكر بمنظومة المذهب المعتزلي))[53]، وأن المصادر في إشاراتها التي تحيل على اشعريته كانت ((خالية من كلّ دعم موضوعي أو توسع))[54] وحججها: حضور نصّ القاضي عبد الجبار ضمن مؤلفاته[55]، وهو من أعمدة المعتزلة ،وأن شيخي عبد القاهر الوحيدين :محمد بن الحسين بن عبد الوارث الفارسي (421هـ) ،وهو ابن أخت أبي علي الفارسي (377هـ) المعتزلي ،و عبد العزيز الجرجاني (392هـ) الذي كان هو الآخر معتزليّا كانا قد أثّرا فيه[56]، فضلا عن أنّ قيام عبد القاهر الجرجاني بشرح كتاب (الايضاح) للفارسي نفسه[57]، يكشف عن وجه من وجوه التأثر والإعجاب.

إنّ اقتراب عبد القاهر من الفكر(الإعتزالي) يتّضح في موقفه الواضح من الشعر ، وهو موقف لا يمكن فصله عن موقف (المعتزلة) التي رأت أن الأسس البلاغيّة في القرآن الكريم هي نفسها الأسس البلاغية لكلام سائر البشر، وأن معايير الجمال في النص القرآني هي نفسها معايير الجمال في أي نص أدبي[58]، ومن هنا نفهم (سرّ)،استشهاد الجرجاني بالشعر في كتابيه :(أسرار البلاغة)، و(دلائل الاعجاز) ،فهو إذْ يقارب بين لغة القرآن الكريم القائمة على نظم ربّاني معجز، ولغة الشعر القائمة على تخيّل انسانيّ منظّم، إنّما يقارب بين نظمين: الاوّل متناه في إعجازه ،والآخر يمكن تعلّمه ،والنسج على منواله.

الخلاصة :

1- كان الباقلاني يريد أن يجعل من الشعر مهما بلغت مرتبته من القبول الأدبي خطابا أدنى من القرآن الكريم لا لأنّه خطاب قوليّ حسب، بل لأنّه خطاب والقول له ضرب الشيطان فيه بسهمه، وأخذ منه بحظه، فهو مدنّس لا يمكن أن تتقارب لغته مع لغة القرآن الكريم ،وقد توصّل إلى هذا التوصيف بسبب تأثير الفكر الأشعري في أهمّ مقولاته النقديّة ،وهذا يعني أنّ سرّ الفهم النقدي للباقلاني كان يرتبط بدرجة اندماجه بأفكار الأشاعرة ، ومحدداتهم النقديّة الخاصّة باللغة والأدب.

2- لقد أدرك عبد القاهر الجرجانيّ أنّ للشعر وظيفة أدبيّة، وأخرى جماليّة، و ثالثة تعليميّة ولعلّ هذا الإدراك ما كان إلا بسبب سعة أفقه النقدي ،واطلاعه على عدّة تجارب نقديّة وبلاغيّة ، وإيمانه التام بضرورة الفصل بين الرأي النقديّ والعقائدي انطلاقا من حقيقة جوهريّة تتمثّل في أن الشعر إبداع له القدرة على التشكيل المغاير الذي يبتعد عن حقائق الوجود ؛ لأنّه بنيّة أدبيّة مخيّلة قائمة على الإغراب، وقد جهّل من ذمّ وظيفة الشعر الدينيّة، والدنيويّة : الاصلاحيّة ، وجعله منطلقا للاحتجاج لتفسير القرآن الكريم وصولا إلى الكشف عن إعجازه، أي أن الجرجانيّ أدرك أهميّة الشعر في الحياة.

الإحالات و الهوامش:

[1] – للمزيد عن هذا الوصف ينظر: كتاب الصناعتين: أبو هلال العسكري (395هـ): تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر العربي ط 2 :1971: 144، ووظيفة الشعر في التراث البلاغي النقدي عند العرب: د. وسن عبد المنعم الزبيدي: منشورات المجمع العلمي العراقي:2009 :

[2] – ينظر: كتاب الحيوان: أبو عثمان الجاحظ: تحقيق عبد السلام هارون: مطبعة مصطفى البابي الحلبي : مصر: ط2 :1965: 1: 74.

[3] – الرّسالة: تحقيق وشرح: أحمد شاكر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر:1940: 51، 52.

[4] – مجاز القرآن: أبو عبيدة معمر بن المثنى: عارضه بأصوله وعلّق عليه : د. محمد فؤاد سزكين : مكتبة الخانجي بالقاهرة:1: 8.

[5] – تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة: شرحه ونشره: السيد أحمد صقر : دار الكتب التراث القاهرة : ط2: 1973: 21، 22.

[6] – كتاب الصناعتين..: أبو هلال العسكري : تحقيق : علي محمد البجاوي ،و محمد ابو الفضل ابراهيم: دار الفكر العربي : ط2 :266.

[7] – سورة إبراهيم: الآية: 14/ 4.

[8] – تنظر هذه الوجوه جميعها في: إعجاز القرآن: الباقلاني تحقيق السيد أحمد صقر دار المعارف بمصر1963 :35 –47.

[9] – نكت الانتصار لنقل القرآن: الباقلاني: تحقيق د. محمد زغلول سلام : الإسكندرية : 1971 : 112.

[10] – إعجاز القرآن : الباقلاني :126.

[11] – نفسه: 302.

[12] – إعجاز القرآن:195.

[13] – نكت الانتصار لنقل القرآن: الباقلاني :249.

[14] – نفسه:260.

[15] – نفسه:270.

[16] – نفسه :284.

[17] – كان الباقلاني قد صرّح بأشعريّته حين قال:(ذكر أصحابنا....: 33،ويريد بأصحابه الأشاعرة، وقال: (وذهب أصحابنا: 59)،وممّن قال بأشعريّته ابن الجوزي في المنتظم:7 :265 .

[18] – بيان اعجاز القرآن: ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن: تحقيق محمد خلف الله ، ومحمد زغلول سلام: دار المعارف بمصر:1976 : 22

[19] –ينظر:. نفسه.

[20] – نفسه: 23.

[21] – اعجاز القرآن :26.

[22] – إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة: د منير سلطان: منشاة معارف الإسكندرية ط3: 1986. :243.

[23] – اعجاز القرآن: 245.

[24] – نفسه: 51.

[25] – نفسه:54.

[26] – نفسه:55.

[27] – نفسه:57.

[28] – نفسه:285.

[29] – إعجاز القرآن : 56.

[30] – نفسه.

[31] – اعجاز القرآن : 180.

[32] – ينظر : اعجاز القرآن: 327، 328 .

[33] – إعجاز القرآن بين المعتزلة الأشاعرة :د منير سلطان :103.

[34] – النثر الفني في القرن الرابع الهجري: 2: الهيئة العامة المصرية للكتاب: 2010: 72، 73.

[35] – النقد المنهجي عند العرب و منهج البحث في الادب واللغة: د. محمد مندور: دار نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة : 1972 :380 .

[36] – الظاهرة القرآنية: مالك بن نبي: ترجمة عبد الصبور شاهين: مقدمة محمود محمد شاكر: دار الفكر المعاصر: بيروت، دار الفكر سوريا:2000: 44.

[37] – اعجاز القرآن: 302.

[38] – دلائل الاعجاز قرأه وعلّق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر الناشر مكتبة الخانجي في القاهرة : 1984.: 7، 8 .

[39] – دلائل الإعجاز: 8.

[40] – ينظر: شرح دلائل الاعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني: د. محمد ابراهيم شادي: دار اليقين للنشر والتوزيع مصر: ط1: 2010: 64.

[41] – دلائل الإعجاز: 8، 9.

[42] –ينظر: شرح دلائل الاعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني: د. محمد ابراهيم شادي: 65.

[43] – دلائل الإعجاز: 11.

[44] – نفسه: 15.

[45] – ينظر: نفسه: 26.

[46] – دلائل الإعجاز: 27.

[47] – أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر الناشر دار المدني بجدة ط1 :1991: 272

[48] – نفسه: 343.

[49] – أسرار البلاغة : 343.

[50] – كتاب الحيوان : تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون: مطبعة البابي الحلبي وأولاده : ط2: 1965: 1: 75.

[51] – ممّن قال بأشعريّة الجرجاني ينظر: ابن العماد في كتابه (شذرات الذهب:3: 340) ، والسيوطي في كتابه (بغية الوعاة :2: 106)

[52] – ينظر: دلائل الاعجاز: ج، د.

[53] – الجرجاني أمام القاضي عبد الجبار: سلوى النجار: نحو رؤية جديدة في قضايا اللغة لدى الجرجاني: التنوير:ط1: 2010 : بيروت :374.

[54] – نفسه: 17.

[55] – نفسه 374.

[56] – الجرجاني أمام القاضي عبد الجبار: سلوى النجار: 10، 11.

[57] – نفسه: 13.

[58] – ينظر: الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم عند المعتزلة: د. عماد حسن مرزوق: مكتبة بستان المعرفة: الإسكندرية مصر: 2005 :21.

المصادر والمراجع:

*القرآن الكريم

1- أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر الناشر دار المدني بجدة ط1 :1991.

2- الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم عند المعتزلة: د. عماد حسن مرزوق: مكتبة بستان المعرفة: الإسكندرية مصر: 2005 .

3- إعجاز القرآن : الباقلاني: تحقيق السيد أحمد صقر: دار المعارف بمصر: 1963 .

4- إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة: د منير سلطان: منشاة معارف الإسكندرية ط3: 1986.

5- تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة: شرحه ونشره: السيد أحمد صقر : دار الكتب التراث القاهرة : ط2: 1973.

6- ثلاث رسائل في اعجاز القرآن: تحقيق محمد خلف الله ، ومحمد زغلول سلام: دار المعارف بمصر:1976.

7- الجرجاني أمام القاضي عبد الجبار: سلوى النجار : نحو رؤية جديدة في قضايا اللغة لدى الجرجاني:التوير:ط1: 2010 : بيروت .
8- دلائل الاعجاز قرأه وعلّق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر الناشر مكتبة الخانجي في القاهرة : 1984.
9- الرسالة: الشافعي : تحقيق وشرح: أحمد شاكر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر:1940.
10- الظاهرة القرآنية: مالك بن نبي: ترجمة عبد الصبور شاهين: مقدمة محمود محمد شاكر: دار الفكر المعاصر: بيروت، دار الفكر سوريا:2000.
11- كتاب الحيوان: ابو عثمان الجاحظ: تحقيق عبد السلام هارون: مطبعة مصطفى البابي الحلبي: مصر: ط2 :1965 :1.
12- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر: أبو هلال العسكري: تحقيق: علي محمد البجاوي، و محمد ابو الفضل ابراهيم: دار الفكر العربي : ط2.
13- مجاز القرآن: أبو عبيدة معمر بن المثنى: عارضه بأصوله وعلّق عليه : د. محمد فؤاد سزكين : مكتبة الخانجي بالقاهرة:1.
14- النثر الفني في القرن الرابع الهجري: د. زكي مبارك : 2: الهيئة العامة المصرية للكتاب: 2010: 72، 73.
15- النقد المنهجي عند العرب و منهج البحث في الادب واللغة: د. محمد مندور :دار نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة : 1972.
16- نكت الانتصار لنقل القرآن: الباقلاني: تحقيق د. محمد زغلول سلام : الإسكندرية : 1971.